الفصل الثالث

الارتداد

في الرسالة الثانية الى تسالونيكي انبأ بولس الرسول بالارتداد العظيم الذي كان سيأتي نتيجة لتوطيد السلطة البابوية. فقد أعلن أن يوم المسيح لن يأتي « ان لم يأتي الارتداد أولا ويستعلن انسان الخطيئة ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يُدعى الهاً أو معبودا حتى أنه يجلس في هيكل الله كإله مظهرا نفسه أنه إله ». وفضلا عن ذلك فالرسول يحذر اخوته قائلا : «سر الاثم الآن يعمل » (٢ تسالونيكي ٢: ٣ و ٤ و ٧). حتى في ذلك التاريخ القديم رأى الضلالات التي ستعد الطريق لنشر البابوية وتطورها وهي تزحف الى داخل الكنيسة.

وشيئا فشيئا نرى « سر الاثم » يتسلل في البداية في صمت وسكون، وبعد ذلك يتقدم علنا عندما حصل على سلطان وقوة وتسلط على عقول الناس وهو يقوم بعمله التجديفي الخادع. وبطريقة لم يكد يحس بها احد شقت العادات الوثنية لنفسها طريقا الى داخل الكنيسة المسيحية. وكُبح روح التساهل والخنوع بعض الوقت بواسطة الاضطهادات العنيفة التي شنتها الوثنية على المسيحية. ولكن بعد زوال الاضطهاد حين دخلت المسيحية بلاط الملوك وقصورهم ألقت عنها رداء البساطة التي في المسيح ورسله واستعاضت عنه

بفخامة الكهنة والرؤساء الوثنيين وكبريائهم، كما استعاضت عن مطالب الله بمبادئ الناس وتقاليدهم. ان اهتداء قسطنطين الاسمي الظاهري في اوائل القرن الرابع سبب فرحا عظيما، فدخل العالمُ الكنيسة مرتديا صورة البر. وفي ذلك الوقت تقدم عمل الفساد بسرعة. والوثنية التي بدا كأنها انهزمت صارت هي المنتصرة. فلقد سيطرت روحها على الكنيسة اذ اعثرت بتعاليمها وطقوسها وخرافاتها ايمان المعترفين بأنهم اتباع المسيح.

وقد نتج من هذا التواطؤ بين الوثنية والمسيحية أن نضج « انسان الخطيئة » الذي سبقت النبوات فأنبأت بأنه سيقاوم الله ويسعى ليرتفع عليه. فذلك النظام الهائل الجبار، نظام الديانة الكاذبة، هو ذروة قوة الشيطان وقمة محاولاته لاجلاس نفسه على العرش ليحكم على الأرض حسب ارادته.

لقد حاول الشيطان مرة أن يعقد تحالفا مع المسيح. جاء الى ابن الله في برية التجربة، واذا اراه كل ممالك العالم ومجدها عرض عليه ان يدفعها كلها الى يديه اذا اعترف فقط بسيادة سلطان الظلمة. لكنّ المسيح انتهر ذلك المجرب الوقح وارغمه على الانسحاب. غير أن الشيطان يصيب نجاحا أعظم حين يغري الناس بالتجارب ذاتها. ففي سبيل الظفر بارباح العالم وكراماته انساقت الكنيسة الى أن تطلب رضى عظماء الارض ومعاضدتهم، واذ رفضت المسيح على هذا النحو فقد غُرر بها لكي تقدم ولاءها لنائب الشيطان، اسقف روما.

من بين العقائد الكاثوليكية الرئيسة أن البابا هو الرأس المنظور لكنيسة المسيح الجامعة، وهو مزود سلطاناً فائقاً على الاساقفة والقساوسة في كل انحاء العالم. وأكثر من هذا فقد خُلعت على البابا ألقاب الله نفسه. لقد لُقب بـ « الرب الاله البابا » (انظر التذييل). واعلن انه معصوم. وهو يطالب كل الناس بالولاء. ان ما ألحَّ الشيطان في طلبه في برية التجربة لا يزال هو نفسه يطلبه بإلحاح عن طريق كنيسة روما، وجماعات كثيرة من الناس مستعدون لتقديم ولائهم له.

لكنّ اولئك الذين يخافون الله ويوقرونه يقابلون هذا الادعاء المنطوي على التحدي لسلطان السماء مثلما واجه المسيح اغراءات العدو المحتال اذ قال السيد: « للرب الهك تجسد واياه وحده تعبد » (لوقا ٤: ٨)، ان الله لم يورد ابدا أي اشارة في كلمته الى أنه قد أقام انسانا ليكون رأس الكنيسة . فعقيدة سيادة البابا تضادُّ مبشارة تعاليم الكتب المقدسة. ولا يمكن أن يسود البابا على كنيسة المسيح الا بطريق الاغتصاب.

لقد أصر الكاثوليك على أن يلصقوا بالبروتستانتية تهمة الهرطقة وتعمُّد الانفصال عن الكنيسة الحقيقية. لكنّ هذه التهم تنطبق بالحري على الكاثوليك انفسهم. فهم الذين القوا لواء المسيح بعيداً وارتدوا عن « الايمان المسلم مرة للقديسين » (يهوذا ٣).

قوة كلمة الله

عرف الشيطان جيد المعرفة ان الكتب المقدسة تساعد الناس على تمييز مخاتلاته والصمود أمام قوته. فحتى مخلص العالم نفسه صد هجماته بالمكتوب. ففي كل هجوم حمل المسيح ترس الحق الابدي قائلا: « مكتوب ». وأمام كل اقتراح من مقترحات الخصم قدم حكمة الكلمة وسلطانها. فلكي يظل الشيطان محتفظا بسيادته على الناس ويثبِّت سلطان البابا المغتصب كان لا بد له من أن يبقيهم في حالة الجهل بالكتب المقدسة. أن الكتاب المقدس يعظم الله ويمجده، ويضع الناس المحدودين في وضعهم الصحيح، ولذلك ينبغي اخفاء حقائقه المقدسة وكبتها. هذا هو المنطق الذي اعتنقته الكنيسة الكاثوليكية. فلقد مُنع الناس من نشر الكتاب طوال مئات السنين، كما حُرِّمت على الناس قراءته أو حيازته في بيوتهم، وقد فسر الكهنة والاساقفة المجردون من المبادئ الخلقية تعاليمه بما يدعم ادعاءاتهم. وهكذا اعترفت الغالبية العظمى في العالم المسيحي بأن البابا هو نائب الله على الارض وله السلطان على الكنيسة والحكومة.

الاستخفاف بسلطة السماء

فاذا استُبعد كاشف الضلالات امكن الشيطانَ أن يعمل ما يشاء. وقد أعلنت النبوات عن البابوية قولَها: «ويظن أنه يغير الاوقات والسُّنَّة» (دانيال ٧: ٢٥). ولم تتباطأ البابوية في محاولة القيام بهذا العمل. فلكي يعطوا المهتدين من الوثنية الى المسيحية شيئا ما كبديل من عبادة الاوثان، داعمين قبولهم المسيحية قبولا اسميا، أدخلت عبادة التماثيل وذخائر القديسين في المسيحية تدريجاً. وقد أقر أخيراً المجمع النيقاوي الثاني (٧٨٧ ب. م.) هذا النظام الوثني نهائيا. (أنظر التذييل) وحتى يكتمل عمل ذلك الرجس تجرأت روما على حذف الوصية الثانية من شريعة اللّه التي تنهي عن عبادة الصور، وتقسيم الوصية العاشرة الى أثنتين ليظل عدد الوصايا كما كان.

هذه الروح الاذعانية للوثنية افسحت الطريق لمزيد من الاستخفاف بسلطة السماء. واذ بدأ الشيطان يستخدم قادة الكنيسة غير المكرسين دنس الوصية الرابعة ايضا وعمد الى اغفال يوم السبت القديم الذي باركه اللّه وقدسه (تكوين ٢: ٢ و ٣)، ومجَّد وعظم بدلا منه عيد «يوم الشمس الموقر» الذي كان يحتفل به الوثنيون. ولم يحاولوا اجراء هذا التغيير علنا في بادئ الامر. ففي القرون الاولى كان كل المسيحيين يحفظون يوم السبت الحقيقي، وكانوا يغارون على كرامة اللّه. ولانهم يؤمنون ان شريعة اللّه ثابتة لا تتغير صانوا قدسية وصاياه بكل غيرة. لكن الشيطان استخدم أعوانه بكل دهاء ليتمموا غرضه. ولكي يتجه التفات الناس الي يوم الأحد جعلوه عيدا إكراما لقيامة المسيح. وفي ذلك اليوم كانت تقام الخدمات الدينية، الا انه كان معتبرا يوم اللهو والتسليات، وكان يوم السبت لا يزال يحفظ مقدسا.

ولكي يمهد الشيطان الطريق للعمل الذي قصد ان ينجزه قاد اليهود قبل مجيء المسيح إلى أن يحيطوا السبت بأقسى القيود والنواهي الصارمة حتى لقد جعلوا حفظه عبئا ثقيلا. فانتهز فرصة هذا المنظور الخاطئ ليلصق بالسبت

الازدراء والاحتقار على اعتبار أنه تشريع يهودي. وفيما ظل المسيحيون عموما يحفظون يوم الاحد كعيد مفرح قادهم الشيطان الى جعل يوم السبت يوم صوم، يوم حزن ووجوم، لكي يبرهنوا على كراهيتهم للدين اليهودي.

منشور الامبراطور قسطنطين

وفي اوائل القرن الرابع اصدر الامبراطور قسطنطين منشورا صار يوم الاحد بموجبه عيدا عاما في كل انحاد الامبراطورية الرومانية (انظر التذييل)، فصار رعاياه الوثنيون يوقرون يوم الشمس هذا كما صار المسيحيون يكرمونه. كان الامبراطور يقصد من وراء سياسته هذه أن يوحِّد بين مصالح الوثنية ومصالح المسيحية المتضاربة. ولقد ألح عليه في ذلك أساقفة الكنيسة الذين ادركوا بدافع الطمع والتعطش الى السيادة والسلطان، انه اذا كان المسيحيون الوثنيون يحفظون اليوم نفسه فهذا يساعد الوثنيين على قبول المسيحية ولو في الظاهر، وهكذا يزداد سلطان الكنيسة ومجدها. ولكن اذ كان كثيرون من المسيحيين الخائفين الله قد أخذوا بالتدريج يضفون على يوم الاحد بعض القدسية فقد ظلوا يعتبرون يومَ السبت الحقيقي يومَ الرب المقدس، فحفظوه إطاعة للوصية الرابعة.

لم يكن المضل الاكبر قد أكمل عمله، فلقد عزم على ان يحشد كل العالم المسيحي تحت لوائه، ويستخدم سلطانه عبر نائبه البابا المتكبر الذي كان يدَّعي انه نائب المسيح. وقد أتم غرضه من طريق الوثنيين الذين كانوا نصف مهتدين والاساقفة الطامعين والمسيحيين الذين بهرهم مجد العالم. ومن وقت الى آخر كانت تنعقد مجامع مسكونية يلتقي فيها احبار الكنيسة القادمون من كل ربوع العالم. وفي كل مجمع تقريبا كان يوم السبت الذي شرّعه الله تحط كرامته وتنخفض شيئا فشيئا، في حين أن يوم الاحد كان على العكس من ذلك يسمو ويتجمد. وهكذا آل الامر نهائيا الى اعتبار يوم العيد الوثني مكرَّما كتشريع الهي، بينما اعتبر سبت الكتاب المقدس تشريعا يهوديا بائدا وأعلن تحريم حفظه.

لقد أفلح المرتد العظيم في أن يرتفع « على كل ما يدعى الهاً أو معبوداً » (٢ تسالونيكي ٢: ٤). تجرأ على تغيير الوصية الوحيدة بين وصايا الشريعة الالهية التي توجه الجنس البشري كله توجيها صحيحا الى الاله الحي الحقيقي. فالوصية الرابعة تعلن لنا ان الله هو خالق السموات والارض، وبذلك يمتاز عن كل الآلهة الكاذبة. ولكي تذكرنا هذه الوصية بعمل الخلق علمتنا أن اليوم السابع قد قُدس كيوم راحة للانسان. وكان القصد منها جعل الاله الحي نصب عيون الناس وعقولهم على الدوام كأصل الوجود وموضوع العبادة والسجود. ان الشيطان يحاول أن يحول الناس عن ولائهم لله وتقديم الطاعة لشريعته، ولذلك فهو يحول كل جهوده لمحاربة تلك الوصية التي تشير الى الله كالخالق.

يصر البروتستانت الآن على القول إن قيامة المسيح في يوم الاحد جعلته يوم الراحة المقدس للمسيحيين. ولكن يعوزهم الدليل الكتابي. فلا المسيح ولا رسله اعطوا هذا اليوم مثل هذه الكرامة. ان حفظ يوم الاحد كتشريع مسيحي يجد اصله في « سر الاثم » (٢ تسالونيكي ٢: ٧) الذي كان قد بدأ حتى منذ أيام بولس. فأين ومتى اعترف الرب بابن البابوية هذا ؟ وأي سبب شرعي يمكن اعطاؤه لذلك التغيير الذي لم يقره الكتاب المقدس؟

في القرن السادس صارت البابوية ثابتة الاركان، وقد ثبت كرسي سلطانها في عاصمة الامبراطورية، وأعلن ان اسقف روما هو رأس الكنيسة كلها، وأفسحت الوثنية المجال للبابوية. لقد اعطى التنينُ الوحش « قدرتَه وعرشه وسلطاناً عظيماً » (رؤيا ١٣: ٢) (انظر التذييل). أما الآن فقد بدأت الألف والمئتان والستون سنة من الظلم والاضطهاد البابوي المذكورة في نبوات دانيال وسفر الرؤيا (دانيال ٧: ٢٥، رؤيا ١٣: ٥ ــ ٧). وقد ارغم المسيحيون على اختيار احد الشرين: إما ان يتنحوا عن نزاهتهم واستقامتهم ويقبلوا الطقوس والعبادة البابوية، واما أن تذوي حياتهم في ظلمات السجون أو يقاسوا آلام الموت على آلات التعذيب أو حرقا بالنار أو قتلا بالسيف حينئذ تحقق كلام يسوع حين

قال: « وسوف تسلمون من الوالدين والاخوة والاقرباء والاصدقاء ويقتلون منكم. وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي » (لوقا ٢١: ١٦ و ١٧). وقد اشتد الاضطهاد على الامناء على نحو لم يسبق له مثيل، فصار العالم ساحة قتال عظيمة. ولمدة مئات السنين وجدت كنيسة المسيح ملاذا لها في العزلة والاختفاء. وهكذا يقول الرائي: « والمرأة هربت الى البرية حيث لها موضع معد من الله لكي يعولوها هناك ألفا ومئتين وستين يوما » (رؤيا ١٢: ٦).

حدد بلوغ كنيسة روما ذروة القوة والسلطان بدء العصور المظلمة. ومع تعاظم سلطانها زاد ادلهمام الظلمة. وقد انحرف ايمان الناس عن المسيح، النبع الحقيقي، الى بابا روما. وبدلا من الاتكال على ابن الله لاجل غفران الخطايا والخلاص الابدي اتجه الناس الى البابا والكهنة والاساقفة الذين زودهم هو سلطاناً. وقد علموهم ان البابا هو وسيطهم الأرضي، وانه لا يمكن لإنسان الدنُّو من الله الا بوساطته، واكثر من هذا فانه بالنسبة اليهم في مكان الله وينبغي ان يُطاع طاعة كاملة. والانحراف عن أوامره ومطالبه سبب كاف لايقاع المذنبين تحت أقسى العقوبات الجسدية والروحية. وهكذا انحرفت عقول الناس عن الله الى الانسان المعرَّض للخطأ والضلال والقسوة، بل انحرفوا بالحري الى سلطان الظلمة نفسه الذي نفّذ اغراضه واستخدم قوته من خلال الناس الاشرار. لقد تنكرت الخطيئة في ثياب القداسة، فمتى أُغفِلت الكتب المقدسة وأُسدل عليها الظلام وصار الانسان يعتبر نفسه السيد المتسلط فلنا ان ننتظر تفشي الخيانة والخداع والاثم والفساد. واذ سادت القوانين البشرية والتقاليد الباطلة ظهر الفساد الذي يستشري دائما عندما يطرح الانسان شريعة الله جانبا.

ايام خطرة على الكنيسة

كانت تلك الايام خطرة على كنيسة المسيح. وكان حاملو لواء الحق الامناء قليلين حقا. ومع ان الحق لم يُترك بلا شاهد فلقد بدا في بعض الاحيان كأن الضلالات والخرافات سادت سيادة ماحقة، وكأن الدين الحقيقي قد

طرد من الارض. لقد غاب الانجيل عن الانظار، أما طقوس الديانة فزادت وتكاثرت فأثقلت كواهل الناس بالأوامر الصارمة.

تعلم الناس ليس فقط ان ينظروا الى البابا كوسيطهم بل ايضا أن يعتمدوا على أعمالهم للتكفير عن خطاياهم. فالسفر الطويل لكي يحج الانسان الى الاراضي المقدسة، والاعمال التكفيرية، وعبادة الذخائر، وبناء الكنائس والمزارات والمذابح، وتقديم الأموال الطائلة بسخاء للكنيسة، هذه كلها وما شاكلها فُرضت على الناس لتسكين غضب اللّه أو استجلاب رضاه، كما لو كان اللّه شبيها بالناس يغضب من التوافه أو يصفح متى قُدمت اليه العطايا او الاعمال التكفيرية.

وعلى رغم تفاقم الرذيلة وسيادتها حتى بين قادة كنيسة روما فلقد زاد نفوذ هذه وتعاظم. ففي اواخر القرن الثامن ادّعى البابويون انه في العصور الاولى كان لاساقفة كنيسة روما السلطان الروحي نفسه الذي هو لهم الآن. وبقصد تثبيت هذا الادعاء كان لا بد من استخدام بعض الوسائل لتضفي عليه طابع السلطان، وهذا ما أسرع بأقتراحه أبو الاكاذيب. فلقد زوَّر الرهبان بعض الكتابات القديمة، كما اكتشفت بعض احكام المجامع الكنسية التي لم يُسمع بها من قبل مثبتة سيادة البابا الشاملة منذ اقدم العصور. والكنيسة التي رفضت الحق قبلت هذه الاكاذيب بكل نهم وشغف. (انظر التذييل).

الثبات في وجه المقاومة

أما البناة الامناء القليلون الذين كانوا يبنون على الاساس الحقيقي الراسخ (١ كورنثوس ٣: ١٠ و ١١) فقد تحيروا وارتبكوا وتعطلوا اذ اعاقتهم ركام التعليم الكاذبة عن القيام بعملهم. وعلى غرار البناة الذين كانوا يرفعون أسوار اورشليم في عهد نحميا كان بعضهم موشكين أن يقولوا: «قد ضعفت قوة الحمالين والتراب كثير ونحن لا نقدر ان نبني السور» (نحميا ٤: ١٠). لقد انهكتهم المنازعات والكفاح ضد الاضطهاد والخداع والغش والاثم والخيانة وكل العوائق الاخرى التي

استطاع الشيطان ابتكارها ليمنع ويعطل تقدمهم. وكثيرون من البنائين الامناء خارت عزائمهم، ولانهم كانوا يَنشدون السلام ويحرصون على صيانة املاكهم وارواحهم ارتدوا عن الاساس الحقيقي. أما الآخرون الذين زادتهم مقاومة اعدائهم شجاعة فوق شجاعتهم فقد اعلنوا قائلين بلا خوف: « لا تخافوهم بل اذكروا السيد العظيم المرهوب » (نحميا ٤: ١٤) فساروا في عملهم قُدما وكل منهم سيفه على فخذه (افسس ٦: ١٧).

ان الروح نفسها، روح كراهية الحق ومقاومته، قد اوغرت صدور اعداء الله في كل عصر، وكان مطلوبا من شعب الله ان يُظهروا اليقظة والولاء نفسيهما. وينطبق قول المسيح الى تلاميذه الاولين « ما اقوله لكم اقوله للجميع اسهروا » (مرقس ١٣: ٣٧) على كل اتباعه الى انقضاء الدهر.

وقد بدا كأن الظلمة تزداد حلوكة وهولا، فعمت عبادة الصور، وكان الناس يوقدون أمامها الشموع ويتلون امامها الصلوات، وتفشت أسخف العادات الخرافية كما تحكمت الخرافات في عقول الناس حتى بدا كأن العقل اضاع سلطانه. واذ كان الكهنة والاساقفة انفسهم محبين اللهو والملذات وكانوا شهوانيين فاسدين، كان من المتوقع من الشعب الذي كان يقتدي بهم ويترسم خطاهم ان ينحدر الى عمق اعماق الجهل والرذيلة.

ثم خطت البابوية خطوة اخرى في طريق الادعاء عندما أعلن البابا غريغوريوس السابع في القرن الحادي عشر عصمة كنيسة روما وكمالها، فمن بين المقترحات التي ارتآها وأذاعها قوله بأن الكنيسة لم ولن تخطئ طبقا للكتب المقدسة. الا أن البراهين الكتابية لم تدعم ذلك التصريح. وقد أعلن ذلك البابا المتكبر ايضا أن له السلطان ان يخلع الاباطرة، وان احدا من الناس كائنا من يكون لا يحق له ان يلغي احكامه او يبطلها، اما هو فمن حقه ان يلغي احكام الآخرين (انظر التذييل).

تذلل الامبراطور هنري الرابع

وهنالك مثال مدهش على طغيان هذا المدافع عن العصمة واستبداده في معاملته الشاذة لامبراطور المانيا هنري الرابع. فاذ جاهر هذا الامبراطور بعدم مبالاته بسلطان البابا حرمه هذا وخلعه عن العرش. واذ ارتعب الامبراطور عندما هجره امراؤه وجعلوا يهددونه بعدما شجعهم حكم البابا على التمرد عليه أحس هنري بضرورة عقد صلح مع روما. فسار في صحبة زوجته الامبراطورة وأحد خدامه الامناء عبر جبال الالب في منتصف الشتاء ليتذلل امام البابا، ولما وصل الى القلعة التي كان غريغوريوس فيها اقتيد الى فناء خارجي من دون ان يُسمح لحراسه بمرافقته، وهناك في زمهرير الشتاء القارس وهو عاري الرأس وحافي القدمين في لباس زري لبث ينتظر الاذن من البابا للمثول في حضرته. ولم يتنازل البابا بالعفو عنه الا بعد ثلاثة ايام قضاها الامبراطور صائما معترفا مسترحما. ومع ذلك فإن العفو كان مشروطا بتنفيذ العقوبة قبل أن تعاد اليه سمة الملك ويعود لمزاولة سلطته وحكمه. واذ ازدهى غريغوريوس بهذا الانتصار افتخر بأن من واجبه أن ينزل الملوك عن عظمتهم وكبريائهم.

فما أعظم الفرق المدهش بين كبرياء البابا المتعجرف وغطرسته ووداعة المسيح ولطفه اذ يصور نفسه كمن هو واقف على باب القلب طالباً الإذن حتى يدخل ويمنح الانسان الغفران والسلام، ويعلم تلاميذه قائلا: « من أراد أن يكون فيكم اولا فليكن لكم عبدا » (متى ٢٠: ٢٧).

وقد شهدت القرون التالية ازدياد الاخطاء والضلالات الخارجة من روما والتي لم ينقطع سيلها. بل حتى قبل رسوخ قدم البابوية لاقت تعاليم الفلاسفة الوثنيين قبولا من الناس، وكان لها تأثير على الكنيسة. وكثيرون ممن أقروا باهتدائهم الى المسيحية ظلوا متمسكين بعقائد فلسفتهم الوثنية ولم يكتفوا بالاستمرار في دراستها بأنفسهم بل ألحوا على الآخرين بالسير على نهجهم قائلين أن تلك الفلسفة وسيلة لانتشار نفوذهم وبسطه على الوثنيين. وهكذا

ادخلت على الايمان المسيحي ضلالات جسيمة. ومن أشهر تلك الضلالات الاعتقاد بالخلود الطبيعي للانسان وبوعيه في الموت. هذه العقيدة الخاطئة كانت هي الاساس الذي بنت عليه روما ضلالة الابتهال الى القديسين وتمجيد مريم العذراء. ومن هذا نبتت ايضا هرطقة العذاب الابدي لمن يموتون في قساوة قلوبهم، تلك الهرطقة التي تسللت الى العقيدة البابوية باكرا.

حينئذ أُعِد الطريق لادخال اختراع جديد من انتاج الوثنية، وقد دعته روما « المطهر » واستخدمته في إرهاب الجماهير الساذجة المتمسكة بالخرافات. هذه البدعة ثبّتت الاعتقاد بوجود مكان لعذاب مَن لا يستحقون الهلاك الأبدي، حتى اذا نالوا جزاءهم على خطاياهم وتطهروا من نجاستهم قُبلوا في السماء (انظر التذييل).

وكانت الحال تدعو الى اختلاق شيء آخر يمكِّن روما من الاستفادة من مخاوف تابعيها ورذائلهم. وقد وجدت ضالتها في بدعة صكوك الغفران. فكل من رغبوا في الانضواء تحت لواء البابا لشن الحروب بغية توسيع املاكه الزمنية وتأديب اعدائه او استئصال شأفة اولئك الذين تجرأوا على انكار حقه في السيادة الروحية أُعطوا وعدا بالغفران الكامل لخطاياهم في الماضي والحاضر والمستقبل، وبالعتق من كل الآلام والعقوبات. كما علَّموا الناس ايضا انهم اذ يبذلون من أموالهم للكنيسة يتحررون من الخطيئة وتُعتق أرواح أصدقائهم الموتى المحبوسة في لهيب النار والعقاب. فبهذه الوسائل وأمثالها ملأت روما خزائنها بالاموال الطائلة وساندت الفخامة والتنعم والرذيلة التي أتصف بها اولئك الذين كانوا يدَّعون انهم نواب عن ذاك الذي لم يكن له اين يسند رأسه. (أنظر التذييل).

واستُعيض عن ممارسة فريضة العشاء الرباني، كما جاءت في الكتاب، بالذبيحة الوثنية المدعوة ذبيحة القداس. فلقد أدعى كهنة البابا انهم قادرون بواسطة شعائرهم ومراسمهم العديمة المعنى، على تحويل الخبز والخمر العاديين إلى «جسد المسيح ودمه الفعلي» (٤) نفسه. وبوقاحة تجديفية ادعوا جهارا انهم قادرون على أن يخلقوا الله خالق كل الأشياء. وقد طُلب من

المسيحيين، مع التهديد بالموت، أن يجاهروا بهذه الهرطقة الرهيبة المهينة للسماء. وكثيرون ممن رفضوا ذلك ذهبوا طعاماً للهيب النار. (أنظر التذييل).

في القرن الثالث عشر اقيمت أرهب انظمة البابوية: محاكم التفتيش. ولقد كان سلطان الظلمة يعمل مع السلطة البابوية ويساندها. ففي مجامعهم السرية سيطر الشيطان وملائكته على عقول الناس الاشرار، بينما وقف في الوسط احد ملائكة الله، وان يكن غير منظور، ليسجل احكامهم الجائرة في سفره المخيف وليكتب تاريخ تلك الاعمال التي كانت أرهب من ان تقع عليها عيون الناس. ان «بابل العظيمة قد سكرت بدماء القديسين». والاجسام الممزقة لملايين من الشهداء كانت تصرخ الى الله لينتقم لهم من ذلك السلطان المرتد.

لقد امست البابوية طاغية العالم المستبد. فالملوك والاباطرة انحنوا خضوعا أمام احكام بابا روما. اذ بدا وكأنه يتحكم في مصائر الناس في الزمن الحاضر وفي الابدية. ولمدى مئات السنين قُبلت عقائد كنيسة روما على مدى وسيع بحذافيرها وبكل ثقة. وبكل وقار كان الناس يمارسون طقوسها بوجه عام، وكان الجميع يحفظون اعيادها. ورجال الكهنوت كانوا مكرمين، وكانت العطايا تُجزل لهم بسخاء لاعالتهم. ولم يحدث قبل ذلك التاريخ ولا بعده أن حصلت كنيسة روما على عظمة أو أبهة أو سلطان أكثر مما حصلت عليه آنئذ.

لكنّ « نور الظهيرة بالنسبة الى البابوية كان ظلام نصف الليل بالنسبة الى العالم » (٥). فالكتب المقدسة كادت تكون مجهولة تماما، ليس فقط من الشعب بل حتى من الكهنة انفسهم. فكما كان الفريسيون قديما هكذا كان هؤلاء الرؤساء البابويون يبغضون النور الذي يفضح خطاياهم. واذ ابعدت شريعة الله التي هي نموذج البر ومقياس الكمال كانوا يمارسون سلطانهم بكل حرية ويجترحون الرذيلة بلا رادع. كما تفشى الاحتيال والجشع والبخل وسادت الخلاعة ولم يعد الناس يتورعون عن ارتكاب كل جريمة في سبيل الوصول الى المراكز العظيمة والحصول على الغنى الجزيل. ولقد مثلت في قصور البابوات والاساقفة احطّ مشاهد الفجور والنجاسة. كما ان بعض البابوات المتربعين على

الكرسي البابوي ارتكبوا جرائم مثيرة ومنفرة جدا بحيث ان رؤساء الحكومات حاولوا عزل احبار الكنيسة اذ اعتبروهم وحوشا احط مما يمكن احتمالهم او التغاضي عن جرائمهم. ولقد ظلت اوروبا واقفة جامدة لم تتقدم في العلوم أو الفنون أو المدنية، وهكذا شمل العالمَ المسيحي شللٌ أدبي واخلاقي وثقافي.

ان حالة العالم تحت الحكم البابوي وفّرت صورة مخيفة ومدهشة لاقوال النبي هوشع اذ قال: «قد هلك شعبي من عدم المعرفة. لانك أنت رفضت المعرفة ارفضك انا... ولانك نسيت شريعة الهك انسى انا أيضا بنيك»، «لا أمانة ولا احسان ولا معرفة الله في الأرض. لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق. يعتنفون ودماء تلحق دماء» (هوشع ٤: ٦ و ١ و ٢). هذه كانت عواقب اقصاء الناس كلمة الله بعيدا منهم.